

## جمع التراث والمحافظة عليه

الاستاذ صالح المهدي

ان الرقص تعبير جثماني يرافق مايؤديه الصوت سواء كان ذلك الصوت انسانيا او آليا وهو يساعد على التعميق في فهم الايقاع الذي يصاحب الصوت حيث يقوم بترجمته بطريقة مرئية ما كان سمعيا فقط وبناء على ذلك فلا يمكن ان نتحدث عن التراث الموسيقي دون ان نتحدث عن الرقص وهذا ما يحملني على تقديم جزيل الشكر الى المجلس الدولي للموسيقى الذي ربط الموضوعين في هذه الندوة.

وأقسم هذه الكلمة الى جزئين أولهما يتناول لمحة عن الرقص في تونس وهو في رأيي متصل اتصالا جذريا بما يوجد في الاقطار العربية الاخرى وكذلك في البلدان المتاخمة للبحر الابيض المتوسط والثاني أتعرض فيه الى جمع هذا الرقص وبقائه جيا متداولاً بين الأجيال .  
1/ يتسم الرقص في تونس في اقله بطابع الارتجال الغردي فهو حركات يدوية وخطوات وهزات للخصر يرتجلها الراقص او الراقصة على الايقاع المصاحب للموسيقى الشعبية التي يرتجلها احد العازفين بدوره سواء بالزرنة الو المزود في الحفلات الشعبية او بالكمنجه في الحفلات التي تقوم بها العوادة ويكون دوره فيها في الثلث الاخير من الليل أي بعد الفراغ من نوبة المؤلف ومن البشرف ووصلات الموشحات والاشغال والازجال التي يتخللها القصيد المرتجل الانشاد والتناسيم المعروفة عندنا بالاستخبارات (جمع استخبار) ويكون لرقص في العوادة اي الحفلات الغنائية متخللا لايات الاغاني الشعبية المعروفة بالزنداني "نسبة الى الزندانة" اي السجن وتقوم به المغنية نفسها ولم تقسم في تونس بين الراقصة والمغنية الا في الثلاثينات .

وبهذا يتضح لنا انه لم يكن لنا رقص تقليدي ورقص شعبي مثلما هو الشأن في الموسيقى فهو شعبي فلكلوري تشترك فيه المؤاة والبنت وقد يجمع بني فتاتين في حصة واحدة لكن تكون احدهما هي المرتجلة النائثة تقلدها روتصاحبها .

أما الرقص الرجلي الخاص فانا نراه في "الربوخت" وهي حفلة "الزوافريه" الي العملة ويقوم به غالبا شابان يرتجل احدهما ويقلده الثاني ببراعة يحسبه فيها الرائي انه يقوم بحركات مضبوطة محسوبة وهي تعبر عما يقوم به العامل أثناء عمله الشاق المضني ويكون الربوخ مصحوبا بألة المندلين أو العود مع الدربوكة ودخل فيه منذ خمسين عاما المزود والبندر "الدفوف".

وللرجال رقصة اخرى تسمى "الزقاره" ويشترك فيها شابان بالعصي او السيوف وهي عبارة عن معركة بينهما ويكون فيها احدهما على حالة تقارب من الجلوس والثاني واقفا وتجري المعركة

على نغمات الزرنه والطبل وتتماشى ضربات السيوف مع الايقاع قوة وضعفا وتختم هذه المعركة بلاغالب ولا مغلوب حيث تكون خاتمته بعناق بين الطرفين والرقص الجماعي يكاد يكون مفقودا في شمال تونس أما في الوسط والجنوب فانا نجد في جزر قرقنة وجربة ويقوم به العازفون للرنه والطبل الو الدريوكه انفسهم في لباس الجروال وله اتصال متين في حركاته وفي اللباس بما وجد ف اغلب جزر البحر الابيض المتوسط .

وقد دخل هذا النوع من الرقص لاي الصحراء وتبنته عدة مناطق ففي تونس نجده في اغلب قرى الجنوب الشرقي وقد سبق ان حازت به فرقة غمراس الجائزة الاولى في مهرجاننا القومي . وقد تسرب هذا الرقص في ليبيا حتى فزان وقديما كانت فرق " الفزانة تقوم برقصاتها في احياء تونس العاصمة.

ومن هذا الرقص ما كان جماعيا فمنا ما تقوم به فرقة السطنبالي اثناء خرجاتها بشوارع المن ومن ابرز هذه الخرجات خرجه سيدي سعد بالعاصمة ومنه ما بقي محافظا على طابعه الافريقي الزنجي القديم ومن أشهره في الرقص والدوران، ونفس هذه الرقصة موجودة بالصحراء الليبية وتسمى "القسكة" يرتدي فيها الراقصون الجروالي الذي هو من خصائص الجزر . وهنالك رقصة افريقية اخرى تعربت وهي التي لا تزال متداولة في "مارث" و"غبنتن" و"مدنين" حيث يرتدي فيها لراقصون الجبة الصحراوية ويتمثلون على الطريقة التارقية ولكنها تصحب بغناء الشعر الشعبي العربي على دقات "القصعة" وهو طبل مغطي بجلد الجمل ويكون رئيس الفرقة من أشهر شعراء المنطقة وهو الذي يغني وتساعد الفرقة كمجموعة صوتية ويبدأ بحركات الرقص ويتابعه افراد الفرقة العشرة بانسجام ويقوم الجميع من حين لآخر بشخرات يقال انها مجهولة لاستنهاض الغزال من مكنته .

تلك هي لمحة عن اشهر انواع الرقص في تونس ومن ابرز وسائ عرضه والمحافظة عليه جيا متداول هو ما تقوم به الحكومة من تركيز المواطن بالريف بما ينشأ له فيه من مواطن شغلي يكفيه عن التفكير في النزوح الى المدن ومن تشجيع لهذه الفرق بواسطة المبريات المحلية والقومية وتقديم الفرق الممتازة في حفاظها على الاصاله في الاعياد القومية وفي المؤسسات السياحية وبالخصوص بتحريض المواطنين على الاستمرار جعل هذا الفرق عنصرا هاما من عناصر حفلات افراحهم واعطاء الفنان الشعبي سواء أكان موسيقيا أو راقصا نفس المكانة التي تعطى للفنانين التقليديين الو العصريين المتخرجين من المعاهد وكفينا القول لتأكيد ذلك انه اصبح لدينا في تونس نحو الثلاثة آلاف وخمسائة فنان وفنانة يملكون بطاقات احتراف قانونية ومنهم نحو الالفين وخمسائة شعبيون يعمل جميعهم باستمرار في مناطقهم ويعيشون من بيع فنهم .

وقد قامت لجان مختصة بجمع الخطوات التي كانت مرتجلة عن اشهر الفنانين والفنانات واعرقهم امثال بحرية التي احرزت على جائزة زرياب القومية سنة 1957 والزهرة الخميري التي احرزت على هذا الجائزة سنة 1958 ومحمد اللغابي وعيشه وماميه وزنه وعزيزة وهم يمثلون مختلف مناطق الجمهورية. وهذا العمل الاولي هو الذي مكننا من تأسيس العديد من الفرق القومية للفنون الشعبية وتقديمها للوحات تمثل جميع مناطق الجمهورية.

ولدينا نوع آخر من الرقص يلقى نفس التشجيع والمؤازرة وهو رقص الطرق الصوفية العديدة الذي لا بد ان يفرد ببحث خاص حيث يجعل تونس الرابط بين المدارس الشرقية والمغربية والافريقية الزنجية فمن تلك الطرق ماتي بالصفوف المغربية وتتوع حركات الرجل من خلال حضرة الطريقة العيساوية من مكناس والطريقة الطيبية من وزان ومنها التي ابرزت ارتعاشات الاكتاف القبائلية الجزائرية بواسطة الطريقة الرحمانية، ومنها التي تمثل دوران الكواكب حول نفسها وحول الشمس وقد أتت بها الطريقة السلامية من مدينة زليطن بليبيا ومنها الترنج الشرقي الذي وصلنا مع الطريقة القادرية البغدادية يضاف الى ذلك ما حافظت عليه الطرق المحلية مثل العوامرية نسبة لسيدي عامر المزوغي والمدينة والعروسية التي كان لها دور في تهذيب السالمية والعلوية التي لها طابع صحراوي .

والآن وقد تقدمت الوسائل السمعية البصرية فلا بد لنا ان نعزز النقل المباشرين الاجيال باعداد ارشيف بكل قضر عربي يكون مصورا بالتسجيل السنمائي الصوتي او بالفيديو كسات يتناول الرقصات الشعبية في بيئاتها وتكون جامعة لكل العناصر المتصلة بها من موسيقى وغناء ولباس ومحيط انساني لأن الوسائل الاعلامية طورت الاتصال بين الشعوب والانسان مدني بالطبع يجني الزهرة الفيحاء والثمرة اليانعة والفن الجميل حيث يجدها فهو تلقيح محبب ولكنه يهدد شخصية الشعوب بالذوبان بعضها في بعض، والخطر كل الخطر ان تصبح للشعوب ثقافة موحدة ولباس موحد ومأكل وموحد وتكون الدنيا في هذا الحال سجنا موسعا خاليا من البوادر الشخصية في بعث الجمال الذي يعطي للحياة طعمها ويرفع مستوى البشر عن سائر الحيوانات .

واختم بشكر منظمة اليونيسكو على اعانتها لنا على القيام بالبادرة الاولي في تصوير الرقص العربي وذلك في اعداد شريط سنيمائي للمهرجان القومي للموسيقى والفنون الشعبية الذي انتظم في صانفة 1975 بالمنستير تحت سامي اشرف فخامة السيد رئيس الجمهورية وبحضوره.